تفريغ محاضرة

لن تضلوا بعده أبدا

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٤/٤/٦ هـ

"لن تضلوا بعده أبدا"

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد..

كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يبدأ خطبه بهذه المقدمة دائما، وقد بدأت بها اليوم بغية الرجوع في هذا الدرس لأحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- التي وصف بها ما سيحصل بآخر الزمان من أشراط للساعة، التي تبلغ اثنين وسبعين علامة، وأغلبها قد حصل، ولم يبقَ سوى ستة أو ثمانية، فالعدد الذي ظهر كبير.

هناك مجموعة من الأحاديث التي جاءت في وصف الناس وما سيحصل لهم، غير تلك التي تتحدث عن العلامات الكونية كالشمس والقمر وما سيحصل للرزق وغيرها..

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: [نَظَرَ رَسُولُ -اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى الْجُوعِ فِي وجُوهِ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: "بْشِرُوا، فَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُغْدَى عَلَى أَحَدِكُمْ بِالْقَصْعَةِ مِنَ الثَّرِيدِ وَيُرَاحُ عَلَيْهِ بِمِثْلِهَا" ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ، قَالَ: "بَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذ] (١)

نظر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أصحابه وهم جائعون عطشى، وكانت المدينة في بداية الإسلام في فقر شديد، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يربط حجرين على بطنه من الجوع حتى لا يؤلمه، فبشرهم بزمان تأتي فيه الصحون وتروح باستمرار صباح مساء، والثريد هو مرق فيه لحم وخضار، فتساءل الصحابة هل هذا خير؟ قال الرسول عليه الصلاة والسلام-: بل أنتم خير من ذلك

ومعنى الحديث، أنه سيأتي على الناس زمان تفتح الدنيا عليهم، والطعام شيء مما سيحصل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: [يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، مَا يُبَالِي الرَّجُلُ مِنْ أَيْنَ أَصَابَ الْمَالَ، مِنْ حِلٍّ أَوْ حَرَام] (٢)

في آخر الزمان لا يهم الناس حلال المال وحرمته، والمهم حصولهم على المال، والاستثمار به، ولا يهم إن كان هذا الاستثمار حلالا أم حراما، ربوي وفيه فوائد أم لا، المهم هو الغنى.

---

١ رواه البزار في مسنده وقال الألباني صحيح لغيره

٢ أخرجه النسائي في سننه وقال الألباني صحيح

قال النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: [بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ: تَسْلِيمُ الْخَاصَّةِ، وَفُشُوُّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ، وَقَطْعُ الْأَرْحَامِ، وَفُشُوُّ الْقَلَمِ، وَظُهُورُ الشَّهَادَةِ بِالزُّورِ، وكتمان شهادة الحق] (٣)

مما سيحصل عند قرب الساعة تسليم الخاصة، فلا يسلم الإنسان إلا على من يعرف، وهذا ما يحصل في الأعراس، فلا يسلم من على الطاولة ذاتها إلا إذا عرفه، ولا ينظر لهم ولا يرمي السلام حتى، وأغلب الناس اليوم رواد أعمال، وكل لديه مشروع ومنشأه تدر عليه المال، والتجارة لا تكون بين الرجال فقط، بل تعين المرأة زوجها في التجارة وليس في أمور البيت فقط، ويفشوا في هذا الزمان قطع الأرحام، وشهادة الزور، فالذي لديه منتج معين، يعلن عنه ويبيعه وهو لا يعلم فساده من صلاحه، وظهور القلم أي تفشي الكتابة، فيكتب كل من هب ودب، وكم رسالة تصل على الواتس، وكم منشور يكتب في مواقع التواصل الاجتماعي، وكل هذا عبارة عن قلم يكتب.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: [تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا، أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا] (٤)

في آخر الزمان تبدو الأرض كأنها تقيء الأحجام الكبيرة من الذهب والفضة، فيمر الناس عليها فينظر لها السارق ويقول "هذا ما سرقت" ويمر قاطع الرحم ويقول "لهذا قطعت رحمي" ولكن لأن القيامة قامت، فلا يهتم أحد للذهب والفضة وما يتناحر عليه الناس يومئذ.

حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- صحابي جليل وصاحب سر رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وهو الذي سأله عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "أنشدك يا حذيفة، هل سماني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المنافقين؟"، ذاك أن حذيفة الوحيد الذي كانت لديه قائمة المنافقين في ذلك الزمان، وهو الوحيد من الصحابة لذي لديه خبر الفتن إلى قيام الساعة، وقد قال: "ما من فتنة تصيب المسلمين إلى قيام الساعة، إلا وقد أخبرني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منها بخبر"، ولو أن النبي -عليه الصلاة والسلام- استأمنه عليها وإلا لأفشاها للناس.

وفي الحديث [أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟] (٥)

---

٣ أخرجه البخاري في الأدب المفر

٤ أخرجه مسلم في صحيحه

٥ أخرجه البخاري في صحيحه

وما كان يسأل حذيفة لمجرد الفضول، بل حتى يعلم ما يفعل، وقد قال أبو حذيفة أن أول ما يفقد الناس من الدين الخشوع، عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: [أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعا] (٦)

تعالوا نتذكر كم صلاة خاشعة صلينا خلال هذه السنة؟ صليت الفجر وأنت صاح، وصليت المغرب بتأنٍّ، وعرفت ماذا قرأت بعد الفاتحة، وسبحت في السجود ولم تسهُ، متى صليت ولم تشعر أنك تريد اللحاق بشيء ما؟ فأول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون الصلاة، قد يكون هناك مذنبون، ولكن مشهد الصلاة سيظل باقيا، ولكن من الذي سيخشع بها؟ الله أعلم

وفي رواية يكمل فيقول: [لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة] (٧)

أي أن كل أمر من أوامر الإسلام وكل عرى الإسلام التي تبنى عليه مصالحه، ستنقض عروة عروة، فلا ندري حينها أن حقائق الدين الكبرى تلك هل حرام أم حلال، وهل يوم القيامة واقع أم لا، فيتم التشكيك بالثوابت والأشياء الأساسية.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: [”لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ”، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: ”فَمَنْ“] (٨)

فنمشي ونفعل مثل ما فعلوا

قال النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: [تَصَدَّقُوا، فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ، فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا، يَقُولُ الرَّجُلُ: لَوْ جِئْتَ بِهَا بِالْأَمْسِ لَقَبِلْتُهَا، فَأَمَّا اليَوْمَ، فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا] (٩)

بمعنى أن يكثر المال على الناس، فالقضية ليست وجود الخير عندك من عدمه، بل هل لديك من الإيمان الذي يمكنك من الاستفادة من هذا الخير أم لا.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: [لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعْزَفُ عَلَى رُءُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ، وَالْمُغَنِّيَاتِ، يَخْسِفُ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ] (١٠)

٦ أخرجه الطبراني في معجمه وقال الألباني صحيح

٧ أخرجه احمد في مسنده وقال الألباني صحيح

٨ أخرجه البخاري في صحيحه

٩ أخرجه البخاري في صحيحه

١٠ أخرجه ابن ماجه في سننه وقال الألباني صحيح

سيغيرون اسم الخمر ويطلقون عليها مشروبات روحية، للطاقة وللترويح عن النفس، ويضرب على رؤوسهم بالمعازف، واذهب إلى المطاعم اليوم وانظر لهذا، أولئك يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير، ويؤكد على هذا حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: [فِي هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَتَى ذَاكَ؟ قَالَ: «إِذَا ظَهَرَتِ القَيْنَاتُ وَالمَعَازِفُ وَشُرِبَتِ الخُمُورُ] (١١)

وفي حديث آخر قال النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: [لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ، وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ ...] (١٢)

وهذه الأدلة كلها في حرمة السماع للموسيقى والمعازف والقانيات، وهن النساء اللاتي يغنين.

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: "كيف بكم إذا لبستكم فتنةٌ، يربو فيها الصغيرُ، ويهرمُ فيها الكبيرُ، وتُتَّخذُ سنةٌ، فإن غيّرت يومًا قيل: هذا منكرٌ! قيل: ومتى ذلك؟ قال: إذا قلّت أمناؤُكم، وكثرت أمراؤُكم، وقلت فقهاؤُكم، وكثرت قراؤُكم، وتُفُقِّه لغيرِ الدينِ، والتُمست الدنيا بعملِ الآخرةِ" (١٣)

ابن مسعود صحابي وكان يتحدث إلى مجموعة من التابعين الذين لم يحضروا مع النبي -عليه الصلاة والسلام- فيقول لهم "ماذا ستفعلون إذا لبستكم الفتنة يهرم بها الكبير" أي تكون هذه الفتنة على مدى جيل كامل، أربعون سنة مثلا، فالكبير يرى أن الوضع قد تغير عما كان في صغره، فينسون دينهم، وما كان حراما يصبح حلالا، وما كان يستأنف الناس فعله ترى الجميع يفعله، فالشواذ كانوا مطرودين منبوذين، أما اليوم فقد أصبحوا أناسا عاديين، ولهم منصات وحسابات ومتابعون بالملايين،

"ويربو بها الصغير" أي أن الذي يُولد في هذه الأثناء يعتاد على هذه الفتنة، ويظن أن هذا هو الدين، فلا يسمع أحدا يقول هذا حرام أو حلال، ولا أن هذا ذنب أو معصية، مثل الذي حدث في مصر في السبعينات والثمانينات، حيث أن أول فتاة ارتدت الحجاب في الجامعة بعد ثلاثين سنة من الاستعمار والتغريب، فلم يكن هناك فكرة للحجاب أصلا، والذي حصل، قراءة أحدهم لسورة النور مع أصحابه مع تفسيرها، فعلموا أن الحجاب فريضة، وهذا مع أنهم مسلمون، لكنهم لا يعلمون حكم الحجاب، وقرروا من وقتها ارتداء نسائهم للحجاب، فلما ارتدت امرأته الحجاب كان الناس يرمقونهم بالنظرات، ويرمون عليهم الكلام "من أين أتيتم بهذا الدين؟ ولمَ تجعل امرأتك بهيئة كبيرة سن"

قال التابعون: ومتى ذلك؟ أجاب ابن مسعود: عندما يذهب العلماء، ويكثر الجهلاء والقراء، ويقل الفقهاء، واليوم يسأل كثير عن أجمل الأصوات في القراءة، وهناك الكثير من القراء المشهورين، ولكن إن نزلت نازلة، وأردت أن تسأل فقيها، فكم من عالم ثقة يخاف من الله عز وجل؟ فهم قلة وأقل من القليل، ويقل الأمناء، ويكثر التفقه بغير الدين،

١١ أخرجه الترمذي في سننه وقال الألباني صحيح

١٢ أخرجه البخاري في صحيحه

١٣ اخرجه الألباني في صحيح الترغيب

والتماس الدنيا بفعل الآخرة، فيصبح الناس، حتى لو عملوا عملا صالحا من أجل الآخرة، قاموا بالتظاهر به بغية الظهور على أنه المسلم الملتزم كي يأخذ من الدنيا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أَنَّهُ قَالَ: [سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ، وَلَا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ] (١٤)

فيظهر شيخ في قناة فضائية ويحدثك بما لم تسمع من قبل، فيظن الناس أنهم كانوا في جهل، والحقيقة أن هناك إشارة استفهام كبيرة، هل ما يقوله صحيح؟ ولمَ لم يأتِ به شيخ من المشايخ طيلة الست مئة سنة التي مضت؟ هل كان جميعهم كاذبين!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ["سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ"، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: "الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"] (١٥)

فانظر كم من إنسان تافه يُعقد معه لقاء اليوم، ومتى آخر مرة أجريت مقابلة مع عالم ذرة، فمن المشهور اليوم والمؤثر والذي يتابع من قبل أبنائنا؟ فالرجل الرويبضة، هو الرجل التافه الذي يتكلم في أمر العامة.

حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: [«إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَهَرْجًا»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «الْقَتْلُ» ، فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَقْتُلُ الْآنَ فِي الْعَامِ الْوَاحِدِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ، وَابْنَ عَمِّهِ وَذَا قَرَابَتِهِ» ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَعَنَا عُقُولُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا، تُنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ لَا عُقُولَ لَهُمْ» ثُمَّ قَالَ الْأَشْعَرِيُّ: «وَايْمُ اللَّهِ، إِنِّي لَأَظُنُّهَا مُدْرِكَتِي وَإِيَّاكُمْ، وَايْمُ اللَّهِ، مَا لِي وَلَكُمْ مِنْهَا مَخْرَجٌ، إِنْ أَدْرَكَتْنَا فِيمَا عَهِدَ إِلَيْنَا نَبِيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَّا أَنْ نَخْرُجَ كَمَا دَخَلْنَا فِيهَا«] (١٦)

فكل ما ذكر آنفا هو غيض من فيض، بالمقابل بشَّر النبي -عليه الصلاة والسلام- بأناس آخرين سيثبتون على الدين ويغرسهم الله ويستعملهم في طاعته فالله يصطفيهم لهذا الشرف.

---

١٤ أخرجه مسلم في صحيحه

١٥ أخرجه ابن ماجه في سننه وقال الالباني صحيح

١٦ أخرجه ابن ماجه في سننه وقال الالباني صحيح

حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ زُرْعَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عِنَبَةَ الْخَوْلَانِيَّ، وَكَانَ قَدْ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ، مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ-: [لَا يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ] (١٧)

وحديث عُمَيْرُ بْنُ هَانِئٍ، أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، يَقُولُ: [لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ] (١٨)

وأمر الله يوم القيامة ومعنى هذا أن هناك من سيصل ليوم القيامة وهو ثابت ولو ارتد كل من حوله وخالفه

ويقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: [...، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّابِرُ فِيهِ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا» وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟، قَالَ: «لَا بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْكُمْ«] (١٩)

فالذي يتمسك في زمن الصبر، في زمن يصبح التمسك فيه صعبا، يأخذ أجر خمسين من الصحابة، فهم يجدون للخير أعوانا، بصحبتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعندما يطرقون بابا فيجدون عمر وأبا بكر، أما الذين في آخر الزمان فلا يوجد أحد يعينهم.

<u>وحديثنا اليوم عن بماذا نتمسك؟ وما هو الشيء الذي يجب أن نتمسك به لننجو مما أخبرنا به النبي -صلى الله عليه وسلم-؟</u>

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: [إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ. وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَ] (٢٠)

قال النبي -عليه الصلاة والسلام- هذا الحديث إتماما للأمانة، ولأنه هو المبلغ بالوحي، وآخر الأنبياء والمرسلين، فلن يترك أمته تأتيها الفتن والأحداث والتغييرات مثل الشياه الضائعة في ليلة مطيرة، قال "تركت فيكم كتاب الله وسنتي"

---

١٧ أخرجه ابن ماجه في سننه وقال الألباني حسن

١٨ أخرجه البخاري في صحيحه

١٩ أخرجه الطبراني في معجمه وقال الألباني صحيح

٢٠] أخرجه الترمذي في سننه وقال الألباني صحيح

فيقول ابن عبد البر:" الهدي كل الهدي في اتباع كتاب الله وسنة رسوله، فهي المبينة لمراد كتاب الله، فإذا أشكل ظاهره- يعني الكتاب- أبانت السنة عن باطنه"

إذن نحن نملك شيئا مثل التوأم، كتاب الله القرآن، وسنة النبي -عليه الصلاة والسلام- فلا أحد يمكن له أن يفصل بينهما، والدليل على هذا في أكثر من آية، قال الله عز وجل:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا* فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} (النساء، ١٧٤-١٧٥)

فالذي يعتصم بالوحي سواء المتلوّ منه وهو القرآن، وهو ما نتعبد بتلاوته، وغير المتلوّ ككتب العقيدة وسنة النبي -عليه الصلاة والسلام- فمن يعتصم بها يقول تعالى: {فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}(النساء، ١٧٥)

ويقول الله عز وجل: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ}(طه، ١٢٣)

فلا تخف من الضلال أو التيه، فلديك صمام الأمان، والحبل المتين الذي سينقذك من الطوفان، والناس غرقى وأنت متشبث بخشبة تنجو بها، قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا* قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ} (طه، ١٢٤-١٢٦)

قراراتنا نأخذها بأيدينا، والجزاء من جنس العمل، وسنجازى عليها بالآخرة، فعندما يأتي الهدى إليك وبين يديك، ثم تعرض عنها وتصد وتؤجل، و"أعرض" بمعنى أنه كان أمامك ثم أدرت ظهرك عنه، يقول ابن مسعود -رضي الله عنه-: "إن هذا القرآن حبل الله، والنور المبين، وشفاء نافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه"

والاعتصام هو التمسك والتشبث، ولا يكون إلا باختيار هذا الطريق، وأنت عارف عالم بصعوبته، وأنه يجب عليك التمسك به بقوة.

والاعتصام بالكتاب والسنة هو الالتجاء إليهما والاحتماء بهما عند كل فتنة، والتمسك بهما عند كل اختلاف، فأي اختلاف غريب تلقاه من عيد أو حكم أو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، تقوم برده للكتاب والسنة، وهذا الرجوع عند الاختلاف هو الاعتصام به، ولذلك يقول الله عز وجل: {وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} (البقرة، ٢١٣) ويقول الله عز وجل: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا}(الأنعام، ١١٤) مفصلا أي أن كل ما تحتاجه في حياتك فصلها الله في هذا الكتاب المحفوظ من الزلل إلى يوم القيامة، ويقول الله عز وجل: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(الحجر، ٩) فلن تحتاج غير حكم الله، ولن ترضى بغيره.

وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- هي أقواله وأفعاله وإقراراته، فالصلاة مثلا فرضت في القرآن، وركن من أركان الإسلام، ولكن كيفية الصلاة وصفتها لم تذكر في القرآن، بل جاءت في السنة، لقول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: [... وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي..] (٢١) فنقلت لنا صلاته -صلى الله عليه وسلم- بدقة كصفة إصبعه أثناء التشهد، والنظر وهو يصلي، ويده وموضعها، وكيف تُوضع، كل هذه التفاصيل البسيطة نُقلت بحذافيرها،

٢١ أخرجه ابن حبان في صحيحه وقال الألباني صحيح

وهذه تسمى سنة فعلية، وأما الإقرارات، فهي شيء حدث أمام النبي -عليه الصلاة والسلام- سواء أكان أمرا أم نهيا، فيقره أو ينهى عنه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يقول إلا صدقا، ولا يفعل إلا حقا.

ولمن يؤمن بما جاء بالقرآن ولا يؤمن بالسنة، ولا يحتكم لها لشكوكه بها، قال تعالى: {وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}(النساء، ١١٣)

يقول الشافعي-رحمه الله- والمفسرون: "الحكمة هي سنة الرسول -عليه الصلاة والسلام-"

عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله من حرام فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاضٍ ولكني منفذ لشرع الله، وألا إني لست بمبتدع ولكني بمتبع متبع سنة النبي عليه الصلاة والسلام، ألا أنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل، ألا إني لست بخيركم ولكني رجل منكم، غير أني جعلني الله أثقلكم حملًا"

فما أحله الله حلال ليوم القيامة، ولا يجوز لأحد أن يحرمه، وما هو حرام، حرام إلى يوم القيامة، وضع تحتها ألف خط، فلا يجوز تحليل ما حرمه الله لا بكثرة الناس، ولا بانفتاحهم.

إذن الكتاب والسنة هما الروح التي نزلت للأمة، لتخرجها من الظلمات إلى النور، قال الله عز وجل:{أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}(الأنعام، ١٢٢) فالمؤمن لا يحيا بغير الهدى من كتاب الله وسنة نبيه، فلابد من تعلمه وتعلم تفسيره ومكنوناته، وهو شفاء للمؤمنين قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ}(الإسراء، ٨٢) وهذا الشفاء لأمراض القلوب والفكر والبدن.

القرآن هو العلاج الأول لجميع الأمراض، فمن اهتزت صورة الدين في عينيه، وأحس أنه على المحك بين الكفر والإيمان، بعد سماع أحد الملحدين وتشكيكه بالدين وعرضه الكثير من الشبه والأكاذيب مثلا، يقال له ارجع لكتاب الله، وليس ضروريا أن يكون من ذوي العلم، وهذا الرجوع ليس فقط للأمراض الفكرية، حتى الحزن والضيق يعالج بالقرآن بنية الاستشفاء، ولا يكون في سورة البقرة والمعوذات فقط، كما اعتدنا في علاج العين والسحر، إنما القرآن جميعه شفاء.

عندما تشعر بأنك تائه وحائر، ولا تعلم كيف تلملم شتات نفسك، اقرأ القرآن بقلب خالٍ، ستجد القرآن يحدثك ويجيب أسئلتك.

وقد جاء أحد من الكفار إلى أبي سعيد الخدري، وقد لدغته عقرب، فمرض الرجل وكان بانتظار الموت، فما كان من أبي سعيد إلا أن يقرأ سورة الفاتحة وينفث عليه، وكان لا يعلم أنها الرقية، وكانوا قد أخبروا النبي -عليه الصلاة والسلام- بما حصل فقال: "فقام فكأنما نشط من عقال" أي كأن ما به شيء، فلا يقوى على كتاب الله داء عندما يُقرأ بقلب متيقن.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: "القرآن سيف لكنه على اليد الذي تحمله" فهناك سيف بيد جبان، مهما ضرب فإنه لا يقطع، وآخر بيد قوي، فإذا حمله وضرب به قطع، فإذا كان هذا القران يشفي من السم ومن المرض الحسي، فكيف بقلوبنا؟

ويقول ابن القيم -رحمه الله- معلقا على حادثة أبي سعيد: "وقد أثر هذا الدواء- يعني الفاتحة -في هذا الداء وأزاله، كأنما لم يكن على هذا الرجل الذي لدغته العقرب، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة، لرأى لها تأثيرا عجيبا في الشفاء، وقد مكثت في مكة مدة يعتريني فيها أدواء لا أجد لها طبيبا ولا دواء -يحكي عن تجربته الشخصية - فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرا عجيبا، وكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألما، وكان كثيرا منهم يبرأ سريعا"

قال تعالى: {قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (المائدة، ١٥-١٦) وهذا عن كتاب الله عز وجل، أما عن سنة نبيه فقد قال عز وجل: {وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} (النور، ٥٤)

وهاتان الآيتان لمن يؤمن بالقرآن فقط، فالقرآن يخبرك أنه من يطع الرسول -عليه الصلاة والسلام- يهتدي، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} (الحشر، ٧) وهذا تيار قوي يؤثر في الأجيال القادمة، فكيف لهم أن يختزلوا الشرائع، فالقرآن جاء بالأساسيات فقط، ولكن الدين والشرع والمنهج يؤخذ من السنة النبوية، لأنها جاءت مبينة له، يقول أبو عثمان النيسابوري: "من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة"

في الحديث: [أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ، وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة: ٩٢] فَسَلَّمْنَا، وَقُلْنَا: أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ، فَقَالَ الْعِرْبَاضُ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ «أُوصِيكُم بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"] (٢٢)

حدثهم النبي -عليه الصلاة والسلام- عن الاختلاف الكبير الذي سيحصل، فلا العقيدة هي العقيدة، ولا الدين هو الدين، ولا الناس هي الناس، فحينما ترى هذا الاختلاف، كاحتفال الناس بعيد وثني ليس له أصل في ديننا، ولا في دين النصارى.

كيف يمكن أن تحتفل بشيء كهذا وقد تركنا الرسول -صلى الله عليه وسلم- على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فدينك الإسلام أبيض نقي، وتخيل -رعاك الله- أن يأتي الرسول -عليه الصلاة والسلام- في تلك الليلة، والوجوه ملطخة بالألوان، ومغطاة بالأقنعة زاعمين طرد الأرواح الشريرة التي حكا لهم عنها الكفار، ماذا سيقول حينما يرى ما أحدثت أمته من بعده!!

لذا كان الثبات والاستقامة بالتمسك بالسنة، وسنة الخلفاء الراشدين، ولم يقل "عضوا عليهم" بل قال "عليها" لأنها سنة واحدة عن النبي -عليه الصلاة والسلام- وانتقلت للخلفاء الأربعة، ولم يحيدوا عنها.

٢٢ أخرجه ابن داوود في سننه وقال الألباني صحيح

وهناك من يقول لم لا نجرب هذا الشيء الجديد، والرسول -عليه الصلاة والسلام- حذرنا من محدثات الأمور، لأنها حلقة من سلسلة متتالية، فكل محدثة بدعة، أي انتبه لكل شيء دخيل وجديد ألا يكون بدعة، لأن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فالذي لم يفعله النبي -عليه الصلاة والسلام- ولم يفعله أبو بكر وعمر وعثمان وعلي من بعده، فليس علينا أن نأتيه بحجة أننا فهمنا مالم يفهموه، لأن كل محدث جديد يوصل إلى النار.

هذه الوصية آخر ما وصى به النبي -صلى الله عليه وسلم- أمته، وجزى الله الصحابة عنا كل خير، لأنهم سألوا ولم يتوانوا، والنبي أوصى بالتمسك والاعتصام، والعض عليها بالنواجذ، والقابض على دينه كالقابض على الجمر، كلها كلمات وتعابير دلت على صعوبة هذا الأمر، وما فيه من مقاومة وبذل للمجهود في سبيله، فالتزامك بحجابك، أو بفرض معين، أو خشوع في صلاة ليس هينا، كالقابض على جمر مشتعل، ولم يقل ممسكا بها، بل قال قابضا، أي ممسكا بها بكل يده، وهذا موجع ومحرق.

ولذلك من المهم أن يسأل الإنسان ربه في كل يوم، أن يهديه الصراط المستقيم، وأن يجعله من الذين يتمسكون بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: [أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ ...] (٢٣)

ووصفه الرسول بأنه شبعان متكئ، فحينما يناقش بمنطقه عن الإيمان بالقرآن دون السنة، فأينك من عمل الأئمة على مدار ثلاث مئة سنة من تدقيق للأحاديث وفحص، فالجهد المبذول بهذا الحجم حتى يحفظ هذ الدين ويصل إلينا، وقد قيض الله له علماء عجم مثل البخاري ومسلم، حفظوا هذا الدين، دين الله عز وجل وما جاء به الرسول الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا حي يوحى، فكيف لك أن تؤمن بالقرآن دون السنة؟ ومن نقل القرآن هو ذاته من نقل السنة أيضا.

ويقول النبي -عليه الصلاة والسلام- في حديث الاخر عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: [لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ] (٢٤)

وهذا حديث صحيح جاء بهذا الأمر، وحدث عن هذا الوضع، فكيف لك أن تصلي الفجر ركعتين وليست أربعة، والمغرب ثلاث ركعات وليست اثنتين، وأنت لا تؤمن بالحديث ولم تأتِ صفتها في القرآن؟ ولذلك ظهر لنا من يصلي بقلبه دون سجود أو ركوع، ويركز على علاقته القلبية بربه، أي استهزاء بشرع الله هذا!

---

٢٣ أخرجه أبو داوود في سننه وقال الألباني صحيح

٢٤ أخرجه ابن ماجه في سننه وقال الألباني صحيح

واليوم يحاربون السنة النبوية، وغدا تبدأ الحرب على القرآن، فيحرفون في معانيه حتى يصلون إلى الإيمان بالإله فقط، ولا حاجة للقران، ثم يكتفون بدين إبراهيمي وكل يعبد على هواه.

قال النبي -عليه الصلاة والسلام- في خطبة الوداع في يوم عرفة: [...فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ...] (٢٥) وهذه الجملة الأخيرة في خطبة الوداع جعلوها أصل في حجية السنة، قالوا: "هي أصل في الاحتجاج بالسنة، فكل إنسان ممن سمع من رسول الله، أو بلغته ولو مقروءة" فنحن لم نسمعها من فم الرسول -صلى الله عليه وسلم- بل وصلت إلينا مقروءة بالأسانيد الصحيحة، وما أكثر المواقع والتطبيقات المتخصصة في روايات الأحاديث صحتها من ضعفها، وما صح عن النبي -عليه الصلاة والسلام- بالسنة فهو حجة قائمة على عباده.

ولهذا نكرر ونعود إلى أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة، وأن يكون لك نصيب من التعلم والتدبر والعمل بما جاء بهما، ومن الغبن أشد الغبن أن يخرج الإنسان من هذه الدنيا وليس في صدره شيء من القرآن، وأقل القليل سورتا البقرة وآل عمران.

اجعل لك استثمارا في كتاب الله، سواء حفظا أو مراجعة أو تدبرا وعملا به، اقرأ القرآن في صلاتك كأنك تقرأها أول مرة، أو في قيام الليل، اقرأ في فرضك غير ما اعتدت عليه من سور جزء عم، اقرأ صفحة من سورة تبارك، جرب آيات من سورة القيامة وغيرها، ستتفاعل معها بطريقة أخرى، ويقال إن من علامات الصلاة المقبولة، أن تخرج منها بقلب غير الذي دخلت فيه، وترى صلاتنا اليوم متصلة بما قبلها وبعدها، فيصلي ثم ما يلحق ويسلم ليكمل ما كان يتحدث به قبل صلاته،

الصلاة المقبولة الخاشعة التي لا تشتهي تركها، تجلس ما بعدها جلسة مناجاة مع الله، فلابد أن يكون لك علاقة بالكتاب والسنة، سواء بمفردك أو مع صديق، قراءة وتفسيرا وفهما وعملا.

حدثتني خالتي عن جدي -رحمه الله- قبل خمسين عاما، حيث كان يوميا بعد صلاة المغرب يجلس مع بناته، ويعلمهن شيئا فكان يعلمهن التحيات، ومرة يحفظهن سورة من القرآن، وفي أخرى المعوذات وهكذا، فتخيلوا هذا الغرس!

لا تنتظر معلمة ابنك أو ابنتك أن تعلمهما، بل ابدأ أنت، حتى لو كان بتعليق بسيط على موقف ما، تحفظ فيه دينهم وتربط حياتهم بالله وبشرعه.

وقد يظن ظان، أن كلمة الاعتصام هي شيء كبير ويحرم بها كل شيء، إنما هي حياة وروح، قال الله عزوجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} (الأنفال، ٢٤) فسمى الله الاستجابة لهذا الكتاب والسنة حياة، فإذا فقد أحد استمتاعه بحياته، وبحث له عن طريقة لتعيد له روحه، فالله أسماها الحياة وهو الذي خلقك ويعرف عز وجل ما الذي يصلحك، فاستجب لما يقول ربك جل وعلا، ولو لم تستجب أو أجلت الاستجابة، فيمكن أن يحول بينك وبين قلبك، وحتى لو أردت أن تشهد بالله فلن تستطيع لأنه حيل بينك وبين قلبك فلا سبيل للنجاة حينها.

---

٢٥ أخرجه البخاري في صحيحه

وفي الحديث: [عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى جُلَيْبِيبٍ امْرَأَةَ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى أَبِيهَا، قَالَ: حَتَّى أَسْتَأْمِرَ أُمَّهَا قَالَ: "فَنَعَمْ إِذًا" فَذَهَبَ إِلَى امْرَأَتِهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا فَقَالَتْ: لَا هَا اللَّهِ إِذًا وَقَدْ مَنَعْنَاهَا فُلَانًا وَفُلَانًا قَالَ: وَالْجَارِيَةُ فِي سِتْرِهَا تَسْمَعُ فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ: أَتَرُدُّونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَمْرَهُ إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَهُ لَكُمْ فَأَنْكِحُوهُ، قَالَ: فَكَأَنَّهَا حلّت عَنْ أَبَوَيْهَا، فَقَالَا: صَدَقَتِ، فَذَهَبَ أَبُوهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: إِنْ رَضِيتَهُ لَنَا رَضِينَاهُ؟ فَقَالَ: "إِنِّي أَرْضَاهُ" فزوَّجها، فَفَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَخَرَجَتْ امْرَأَةُ جُلَيْبِيبٍ فِيهَا، فَوَجَدَتْ زَوْجَهَا وَقَدْ قُتِلَ وَتَحْتَهُ قَتْلَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ قَتَلَهُمْ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَمَا رَأَيْتُ بِالْمَدِينَةِ ثَيِّبًا أنفق منها] (٢٦)

وهذه قصة من قصص الاستسلام لأوامر الله، فقد جاء الصحابي جليبيب للنبي -عليه الصلاة والسلام- حتى يزوجه، وكان من فقراء الصحابة المدقعين في الفقر، فطلب إلى امرأة من الأنصار، فهمت أمها برده، وسمعت الجارية ما دار بين أبويها فغضبت، كيف لهم أن يردوا أمر الرسول -عليه الصلاة والسلام- وقالت: إذا رضيه الرسول فقد رضيته، وانظروا لهذا التسليم! فزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم مات زوجها شهيدا، فقال أنس بن مالك: إنه كثر خطابها بعد ذلك، وقيل إنها خُطبت وتزوجت أكثر من مرة، وكثر مالها وخيرها، وكانت تنفق فيه، وهذا كله ببركة استجابتها لأمر من أوامر الله.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ رَاكِعٌ، فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: [زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلَا تَعُدْ] (٢٧)

وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: [لَمَّا اسْتَوَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، قَالَ: «اجْلِسُوا»، فَسَمِعَ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَجَلَسَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَرَآهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «تَعَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ»] (٢٨)

ما كان لهم ألا يسمعوا لأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومع أن عبد الله يعرف قصد النبي -عليه الصلاة والسلام- بقوله اجلسوا لمن أمامه من الناس، إلا أنه استمع لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- وجلس بالباب، وقال له النبي حينها "زادك الله حرصا على طواعية الله وطواعية رسوله -صلى الله عليه وسلم-" وأقره بذلك.

ولو أن أحدا بعد سماعه لهذا الحديث أعرض عن الاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه، أراد العيش على هواه، فالقرآن يجيبه بقوله تعالى: {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} (النساء، ١١٥) أي هو في شق والرسول -عليه الصلاة والسلام- في شق، ويصلى نار جهنم لأنه اتبع غير سبيل المؤمنين، وأراد أن يستعين بغير سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-

---

٢٦ أخرجه ابن حبان في صحيحه وقال الألباني صحيح

٢٧ خرجه ابن داوود في سننه وقال الألباني صحيح

٢٨ أخرجه ابن داوود في سننه وقال الألباني صحيح

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: [كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»] (٢٩)

قال الإمام مالك -رحمه الله-: "مثل السنة مثل سفينة نوح، من ركبها نجى، ومن تخلف عنها غرق" وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن كلمة الإمام مالك: "وهذ حق" أن من ركب سفينة نوح هم من صدقوا نوحا، ومن تخلف عنها الذين كذبوا نوحا، فالسنة مثل سفينة نوح لا يدخلها إلا من آمن وصدق بها.

هذا الاعتصام يقيك من التلون والتغير حسب ما تتطلبه الحاجة، فتتغير الفتاوى حسب الزمن، وحسب الموقف، فالفتوى اليوم ليست هي بعد سنتين، فمن اعتصم بالكتاب والسنة كانت قراراته مبنية على أحاديث صحيحة وأدلة من القرآن لا يمكن أن تتغير إلى يوم القيامة، فلو أخذنا الرسم والنحت والتصوير لذوات الأرواح إذا ما طبع على ورق محسوس، فهذا حرام إلى قيام الساعة، لقوله -صلى الله عليه وسلم-: [إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَوْمَ القِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ] (٣٠) وكان -عليه الصلاة والسلام- يمكن أن يقول الرسامين، ولكنه أعطي جوامع الكلم، فقال المصورين ليدخل بها كل رسم وتصوير ونحت لذوات الأرواح، وما كان غيرها فلا حرج، وانظر لفن الزخرفة الإسلامية وعظم أمره، حتى أصبحت الجامعات الأمريكية تتدارسه كعلم، مع أنه خالٍ تماما من رسوم ذات الأرواح.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم- "أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ" (٣١)

جاء الإسلام وحطم كل التماثيل وطمسها، ومع تقدم الزمن لا تكاد تذهب إلى محل إلا وتجد عنده من المنحوتات التي كانت غير موجودة إلى عهد قريب، وأصبحت موجودة الآن، كانت لا توجد صور معروضة، والآن ترى صورة الزواج في زاوية كل منزل، ولكن الأمر لا يغير شيئا، فالحرام حرام إلى يوم القيامة، وحينما تعتصم بكتاب الله وسنته لن تتغير وإن تغير الأشخاص والعلماء، فالكتاب والسنة ثابتان لا يتغيران.

---

٢٩ أخرجه البخاري في صحيحه

٣٠ أخرجه البخاري في صحيحه

٣١ أخرجه مسلم في صحيحه

ختاما:

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: ["أَبْشِرُوا وَأَبْشِرُوا أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟" قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: "فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سببٌ طرفُهُ بِيَدِ اللَّهِ وطرفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تضلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أبداً"] (٣٢)

الرسول يبشرنا بشيء ينقذنا من هذا التيه الذي نحن به، فمتى ما أظلمت عليك الدنيا، فاعلم أن القرآن طرفه بيد الله عز وجل، وطرفه بأيدينا، بتمسك به فإنك لن تضل بعده.

فأسأل الله أن يجعلني وإياكم من أصحاب الأخدود الذين حينما هم الحاكم بقتل الغلام فلم يستطع ثلاث مرات، ولما قال باسم رب الغلام قتله، فآمن الناس كلهم، فما كان من الملك إلا أن حفر الأخاديد وأضرم بها النار، ولم يتراجع الناس بل اقتحموها، فأنزل الله فيهم سورة البروج، قال تعالى: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ* النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ} إلى آخر السورة، فما الذي سنفعله حينما نتعرض لمثل هذا الموقف؟ هذا ولم ينزل عليهم لا كتاب ولا سنة، فاللهم اجعلنا من الثابتين على الدين، المتمسكين به، وألا يغيرنا ولا يجعل فينا ولا معنا ضالا ولا محروما.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها

٣٢ أخرجه ابن حبان في صحيحه وقال الالباني صحيح